نظريات فلسفية في علم الأخلاق

جدلية العلاقة بين العقل والنص في فلسفة الأخلاق

أمانوئيل كانط أنموذجا

علي عبد المحسن كريم
الشيخ علي البغدادي

المقدمة

تعد فلسفة الأخلاق من أهم مباحث القيم في الفلسفة ، فمنذ أن ظهرت الفلسفة والتفلسف في العالم أنشغل الفلاسفة بهذا المبحث لما له من أهمية قصوى تدخل في صميم البناء الاجتماعي لأي مجتمع. وقد تطورت النظريات الأخلاقية منذ فجر التفكير إلى يومنا هذا واتخذت عدة اتجاهات أهمها.

١- منظومة أخلاقية تنبع من الدين وتعود إليه.
٢- منظومة أخلاقية يتبعها الدين ويكون ضمن منظومتها.
٣- أخلاق تنبع من الإنسان كمحور في الوجود .

ومن الواضح أن المنظومة الأولى يكون محور الوجود والعدم فيها هو الله والثانية يكون العقل هو الحاكم فيها كون تبعية الدين للأخلاق هو من مستلزمات العقل ومن إنتاجه والثالثة تتعلق بمباحث الأنسنة التي ظهرت في القرن التاسع عشر والعشرين كجزء من خلق منظومة أخلاقية ليبرالية ، والذي نريد أن نكتشفه الآن هو المنظومة الثانية التي هي مجال بحثنا هذا. وقد اخترنا البحث عن هذه المنظومة وعن جدلية تبلورت لدى كانط تؤدي إلى أن نبحث في مضامين النص المقدس التي رفضها كانط ليس لكونها غير مجدية بل لآن العقل حكم على الكثير من منها بالعجز عن خلق منظومة أخلاقية متكاملة من خلال البحث عن المبادئ القبلية الموجودة مسبقا في العقل ، هذه المبادئ القبلية هي ما يطلق عليه كانط ميتافيزيقا الأخلاق ،فمن خلال العقل الخالص من كل مادة يستطيع الفرد الوصول إلى تلك المبادئ العقلية .

في هذا البحث نناقش علاقة العقل بالنص وعلاقة الدين بالأخلاق ورؤية كانط الأخلاقية من خلال ثلاثة مباحث.

١- علاقة النص بالعقل.
٢- علاقة الدين بالأخلاق.
٣- رؤية كانط الأخلاقية.
٤- خاتمة.

مستعرضين أهم القضايا التي ناقشها كانط من خلال مؤلفاته المتعلقة بالأخلاق كتأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ونقد العقل العملي ، وما كتب عنه أيضا في المدونات الفلسفية. من خلال ثلاثة مباحث تقدمت عناوينها وخاتمة.

الباحث

المبحث الأول
علاقة النص بالعقل

أمانوئيل كانط: فيلسوف ألماني عده بعض الباحثين كسقراط الذي فصل الفلسفة اليونانية إلى ما بعده وما قبله. ويعتبره البعض الأخر أب الفلسفة المثالية الحديثة ومقنن المنهج النقدي الحديث. [١] .

وعلى كل حال فأن أي متفلسف يواجه سؤالين مهمين ومطلوب منه الإجابة عنهما:

١- ماذا نستطيع أن نعرف ؟ وهو سؤال عن اختيار الميتافيزيقا.

٢- ماذا يجب أن نفعل؟ وهو سؤال اختيار الأخلاق. [٢].

وتعلق بحثنا بالسؤال الثاني . وهو البحث عن الأخلاق أو اختيار الأخلاق. ولسنا هنا بصدد التنظير لمذهب أخلاقي ، بل نحن بصدد عرض نموذج لفلسفة أخلاقية أنتجتها عبقرية كانط الفيلسوف الألماني المثالي. والتي يقوم أساسها على ما أطلق عليه كانط الواجب. ولابد هنا من بيان معنى ميتافيزيقا الأخلاق بصورة أوسع قليلا .

يقصد من معنى ميتافيزيقا الأخلاق هاهنا المعرفة القبلية بموضوع ما عن طريق التصورات المحضة ، تتميز ميتافيزيقا الأخلاق عن الميتافيزيقا الطبيعية بكون ميتافيزيقا الأخلاق تتناول القوانين الأخلاقية أي ما يجب أن يكون، بينما تتناول ميتافيزيقا الطبيعة قوانين ما هو كائن فعلا،وميتافيزيقا الأخلاق هنا – أي عند كانط- لا تستمد قوانينها الأخلاقية من الطبيعة البشرية ولا من عادات الناس وتقاليدهم أي الأخلاق الشعبية بحسب تعبيره ، بل من العقل ذاته مباشرة، وليس كل عقل بل العقل الخالص من كل مادة،وبالتالي فليس هناك استعانة بعلم النفس – السيكولوجيات – أو علم الإنسان – الأنثروبولوجي – بسبب أن معطيات علم النفس هي من الغموض والتشعب والتشتت بحيث لا يمكن أن نستخلص منها قواعد كلية مطلقة وفيها خلط بين المبادئ وبين الأحوال الجزئية ، بحيث تتوقف النتائج المستخلصة على الأحوال الفردية والميول والعواطف الخاصة ، وهو الأمر الذي يرفضه كانط بصورة خاصة. وسبب رفضه هذا مبني على أساس أن هذه المذاهب التي تزيغ إلى تفسير الأخلاق بتراكيب نفس الإنسان أو الطبيعة الإنسانية ، أو الظروف التي يعيش فيها الإنسان ، وبالتالي فهي لا تقدم سوى قواعد متفاوتة العموم ذاتية بدلا من أن تقدم قوانين كلية موضوعية للإرادة. [٣].

وهنا نسأل هل كانط يرفض التجربة ؟ الجواب هو لا.
فكانط حينما شاهد حال الواقع والتجربة انتهى إلى نتيجة أنه من المستحيل تأسيس الأخلاق على هذا الواقع ، بسبب تشتته ، والأخلاق بحاجة إلى قوانين ومبادئ موحدة، والواقع متغير نسبي ، وهنا لا يمكن البناء على هذه الأرضية كون الأخلاق بحاجة إلى الثبات وبحاجة إلى ما هو مطلق غير نسبي. (٤) .
تأتي النوبة الآن إلى مقصود النص، لا نريد بالنص هنا إلا مجموعة المواريث التي تراكمت عن طريق التجربة البشرية سواء في مجال الدين أو الأخلاق، أي أن الكنيسة ورعاتها لهم نصوصهم الخاصة المستلة من الدين والناس لديهم عاداتهم وتقاليدهم التي ورثوها على مدى السنين ، وهاتان الخلفيتان لا تصلحان أبد لإقامة فلسفة أخلاقية ، فنحن نشاهد أن التفسيرات للنصوص المقدسة والتأويلات التي تتبعها كثيرة ومتغيرة ولا يوجد ضابط لها ، وكذا الأخلاق الشعبية متغيرة وغير منضبطة ، وبالتالي ليس هنا نجاعة في كلى الاثنين، ونحن نريد أن ننشى أخلاق قائمة على أساس عقلي لا تعبدي ، فليس كل ما موجود في المعرفة الدينية من الممكن أن يخدم الإنسان أو أن يقدم له الشيء الكثير مع تأكيدنا على ضرورة الإيمان ولكن هذا لا يعني أن نبني أخلاقنا بناء على المتغير في النصوص الدينية ، وهنا تنشأ الجدلية ما بين النص والعقل ، فكانط يقدم العقل على كل شيء في بناء منظومته الأخلاقية خلافا للمشهور في وقته من التعبد بالنصوص المقدسة والنصوص الشعبية ، وهذا بحد ذاته مشكلة عويصة ولكن يكمن الحل فيما أسسه كانط لحل هذه الجدلية.
ينُظر لكانط لموضوع الإرادة الخيرة كبديل عن النص ، ففي بداية كتابه تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق يؤسس بهذه المقولة (من بين كل الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم ، أو خارجه ، لا يوجد شيء يمكن عده على وجه الإطلاق ودون قيد ، اللهم إلا شيء واحد هو الإرادة الخيرة) (٥) .
يقصد كانط بعبارته هذه - أي الإرادة الخيرة – أن هذه الإرادة وحدها وليس معها شيء أخر يمكن أن نعدها خيرا في كل الظروف والأحوال .
ولكن هل الإرادة الصالحة كافية لإنتاج منظومة أخلاقية سيما وهي خيرة بالذات لا بالعواقب، وكما هو معلوم فأن الأشياء تحسب بعواقبها، أم لا؟
الجواب هو أن الإرادة ترجع إلى معنى واحد ، هو الواجب وهو مفروض علينا، فالإرادة الصالحة هي إرادة العمل بمقتضى الواجب دون أي اعتبار أخر. (٦).
وللتوضيح أكثر ينبغي أن نعرف مقصوده من الواجب ، فالواجب عنده هو ما يقرره وفقا لقاعدة ، والقاعدة هي المبدأ الذاتي ، والواجب هو ضرورة انجاز الفعل احتراما للقانون، ولكن أي قانون هذا الذي يجب أن نحترمه ، إن الصفة المميزة لأي قانون هي أنه كلي ، أي صادق بالنسبة إلى جميع الأحوال بدون استثناء ، والقانون الأخلاقي هو القانون الذي يقول إن الفاعل الأخلاقي يتصرف أخلاقيا إذا سيطر العقل على كل ميوله.
هكذا يحل كانط هذه الإشكالية والتي سوف تتبع الأخلاق للدين ، يقول فيكتور دلبوس (ليس ثم أذن فساد في روح النزاهة التي يجب أن يتحلى بها الإنسان وهو

يطيع القانون الأخلاقي، وليس ثم في هذا لجوء إلى دوافع أجنبية، مثل الخوف والرجاء اللذين لو تحولا إلى قاعدتين لقضيا على كل قيمة أخلاقية للأفعال، كل ما هنالك هو الثقة العادلة المقدسة في مجيء ملكوت الله ، مجيئه وفقا للقانون الأخلاقي ، وفي هذه الأمور أقل خلط يمكن أن يؤدي إلى تشويه طهارة الأفكار، فأننا إذا استطعنا أن نقول بمعنى ما إن الخير الأسمى هو المبدأ المحدد للإرادة فينبغي إلا نغفل أبدا عن أنه كذلك بواسطة القانون الأخلاقي المتضمن فيه بوصفه عنصره الأول الذي لا يقبل الرد . كذلك فإن الأخلاق ليست أبدا في ذاتها مذهبا للسعادة، لأنها تفرض واجبات ولا تقدم قواعد للميول النفعية ، ثم أنها تكبح جماح تلك الحاجة اللامحدودة إلى السعادة التي تدفعنا ،لكنها حين تجعل القانون الخاص بها مطلقا ، فأنها تثير فينا الرغبة في العمل تحت هذا القانون من أجل انتصار الخير الأسمى، وحينئذ فقط ومع هذه التحفظات التي أشرنا إليها تصير مذهبا في السعادة مذهبا لا يقدم علما يقينا برهانيا لكنه يبرر أملا مشروعا. وهكذا وعلى هذا النحو تتم الأخلاق في الدين دون أن تتأسس عليه أبدا، وإذا كان عليها أن تتم في نفس الدين فذلك لأن الإنسان وهو كائن عاقل وحساس معا لا يمكنه أن يحصل وحده وبنفسه القدرة على المحافظة إلى غير نهاية على نيته الحسنة ضد القواعد.التي توحي إليه بها حساسيته ، ولا خصوصا القدرة على أن تحصل بانجاز الواجب على إشباع متطلبات هذه الحساسية نفسها ، وقد صارت هذه المتطلبات حقوقا ، ومع ذلك فإن الأخلاق لا تتأسس على الدين ، لأنه في الاستعداد الراسخ للخضوع للقانون يوجد الأصل الباطن للحاجة التي يستجيب لها الدين ، ولأنه تبعا لذلك التقرير الأولي لمذهب ديني من شأنه أن يحل برابطة منطقية خارجية الرابطة العلمية الباطنة التي تربط المبدأ الأخلاقي بتوكيد الخلود وتوكيد وجود الله. (٧).

وهذه هي غاية كانط أن نصنع قانونا أخلاقيا خاص لا يمت بصلة إلى أي مؤثر خارجي بل على العكس يذيب المؤثرات الخارجية فيه (فيحق لنا أن نتصور واجباتنا أوامر صادرة ليس فقط عن العقل بل أيضاً عن الله ، فننتهي إلى الدين ،لا الدين الموضوع قبل الأخلاق والمعين لها، بل على العكس الدين القائم على الأخلاق القائمة على العقل . نعم الأخلاق تنتهي إلى الدين لكنها لا تقوم عليه لأن الإنسان لا يستطيع الإبقاء على الإرادة الصالحة ومقاومة مطالب الحس، فانه يحدث بأدائه الواجب ما تقتضيه الحس من سعادة ، والأخلاق لا تقوم على الدين لأن طاعة القانون الخلقي أصل الحاجة التي يرضيها الدين ولهذا العكس أثر بالغ فالدين قائم كله على الفعل الخلقي الباطن) (٨) .

أن المبدأ المسيحي ليس لاهوتيا وبالتالي فهو ليس تشريعا خارجيا بل هو التشريع الذاتي للعقل المحض العملي بذاته، لأن هذه الأخلاق تجعل من معرفة الله ومن إرادته أحساسا، لا لهذه القوانين بل ، للأمل في بلوغ الخير الأسمى بشرط مراعاة هذه القوانين ، لأنها تضع الدافع الحقيقي الخليق بأن يجعلنا نراعيها ، لا في النتائج المشتاقة، بل فقط في تصور الواجب بوصفه الأمر الوحيد الذي تجعلنا مراعاته الأمينة جديرين بالحصول على هذه النتائج. (٩).

وعلى أي حال فان هدف كانط هو تكوين أخلاق لها ارتباط مباشر بالعقل الخالص عن المادة بل عن كل شيء وأن تطيعها باقي الأشياء.
فرفضه لكل مسميات اللاهوت ليس لعدم إيمانه بالله ، بل لعدم جدارة النصوص الموجودة عن القيام بتأسيس منظومة أخلاقية ذات طابع عقلي محض ، أي تنبع من القبليات العقلية فقط. وهنا إشكال مهم جدا بحسب نظري القاصر. كيف يمكن إن نجزم بصحة هذه القبليات العقلية بدون البرهنة عليها ، أو لا أقل الوثوق والاطمئنان إليها ؟
في الحقيقة كل ذلك يرجع إلى نفس العقل وقوته ، أي أن العقل متى ما خلص من الماديات ومن التقليد يستطيع أن يظهر مكنونه بصورة إيجابية وكاملة وبالتالي تظهر المبادئ القبلية منه،هذا جواب عموم المثاليين وهو عين جواب كانط ، ولكن يبقى هذا الإشكال قائما .
نعم في الفلسفة الإسلامية تم حل هذه المشكلة بصورة جذرية، فالفلاسفة المسلمون يسلمون بأن الله هو سيد العقلاء وأن ما ينتجه العقل يوافق ما يأتي به الشرع وقد بينوا ذلك في مباحثهم الفلسفية بل أفرد علماء الأصول مبحثا كاملا يتحدث عن هذا الموضوع أسموه بحث المستقلات العقلية ، أي القضايا التي يستقل العقل بإدراكها بدون اللجوء إلى الجانب الخارجي ، كمسألة الحسن والقبح العقليان . [١٠] . ولكن أحد لم يجرؤ منهم على التصريح بمثل الذي صرح به كانط رغم اتفاقهم معه في المبدأ ، أي أن العقل فيه معارف قبلية من الممكن أن تنتج منظومة أخلاقية وهي لا تتعارض مع الدين في أي شيء، كونهم يسلمون بأن ما حكم به العقل حكم به الشرع بلا استثناء، ويهربون منه بحجة كونه – أي مبحث المستقلات العقلية- يدرس الكليات فقط بينما القضايا الجزئية فهي من اختصاص الشرع ، لأن أثبات أن العقل يدرك كل شيء معناها دحض الحاجة إلى النبوات وإلى الشرايع السماوية وبالتالي نفي الدين .
بلحاظ أن العقل يستدل على كل شيء الكلي والجزئي فما الحاجة إذا إلى الأنبياء؟
ولكن الموضوع أعمق بكثير فالأخلاق لها علاقة بالقضايا الكلية بل كل قضاياها كلية ، نعم التفريعات جزئية وهذا لا ينافي أصل المطلب من كون الاستدلال على المبادئ الأولية في العقل قائم وموجود ، بل مثالهم هو الحسن والقبح العقليان ويمثلون له بحسن الصدق وقبح الكذب الذي هو من المبادئ الأساسية في الأخلاق ، بل قيام الأخلاق هو على هاذين المبدأين. وأغلب الظن أن الفقهاء يهربون من هذه القضية كونها تفتح الباب لإنتاج فقه جديد وأصول جديدة وهو أمر لا يمكن لهم تقبله ،إذ دونه تطير الرقاب وتسمل العيون والتكفير موجود وجاهز لأدنى شبه.

المبحث الثاني
علاقة الدين بالأخلاق

قدمنا في المبحث الأول العلاقة الجدلية بين النص الديني وبين مبادئ العقل القبلية وتم الوصول إلى نتيجة مفادها أن العلاقة بين النص والعقل هي علاقة غير طبيعية وأن النص لا يمكن إن ينتج منظومة أخلاقية كالتي يريدها كانط.
في هذا المبحث نتحدث عن علاقة الدين بالأخلاق وفق رؤية كانط وهي رؤية مسيحية في البدء ثم يعممها لتشمل باقي الأديان..
يؤدي القانون الأخلاقي إلى الدين – هكذا يعبر كانط - وذلك بفضل فكرة الخير الأسمى بوصفه غاية العقل المحض العملي، أي يؤدي إلى الإقرار بأن كل الواجبات

أوامر إلهية، لا كجزاءات، أي أوامر اعتباطية عرضية صادرة عن إرادة أجنبية ، بل كقوانين جوهرية لكل إرادة حرة في ذاتها ، ولو أنها يجب أن تعتبر أوامر لكائن أعلى ، لأننا لا نستطيع أن نأمل في الخير الأسمى – الذي يجعله القانون الأخلاقي واجبا علينا كغاية لجهودنا – إلا من إرادة كاملة مقدسة وخيرة أخلاقيا وفي نفس الوقت قادرة قدرة مطلقة وتبعا لذلك لا يمكننا أن نأمل في بلوغ ذلك إلا بالاتفاق مع هذه الإرادة ، وهكذا يبقى كل شيء هاهنا نزيها ومؤسسا فقط على الواجب ، دون إن يستطيع الخوف أو الرجاء كدافعين أن يؤخذا كمبادئ لأنهما إذا صارا مبدأين دمرا كل القيمة الأخلاقية للأفعال ، أن القانون الأخلاقي يأمر بفعل الخير الأسمى الممكن في العالم الغاية النهائية لكل سلوك،لكنني لا أستطيع الأمل في تحقيقه إلا باتفاق إرادتي مع إرادة صانع للعالم قدوس خير، وعلى الرغم من أن سعادتي الخاصة متضمنة في تصور الخير الأسمى ، تضمن الجزء في الكل حيث السعادة الكبرى تتمثل مرتبطة بنسبة دقيقة مع أعلى درجة للكمال الأخلاقي (الممكن للمخلوقات) فإنه ليست سعادتي ، بل القانون الأخلاقي ، - الذي يحد من بشروط قاسية من رغبتي اللا محدودة في السعادة،- هو المبدأ المعين للإرادة والمخصص للعمل من اجل تحقيق الخير الأسمى، فالأخلاق ليست في حقيقة الأمر المذهب الذي يعلمنا كيف يجب علينا أن نجعل أنفسنا جديرين بالسعادة،وفقط حين يضاف إليها الدين يدخل فينا الأمل في أن نشارك ذات يوم في السعادة بالقدر الذي سعينا به إلا نكون غير جديرين بها ، هنا يتجلى دور الدين في الأخلاق إذ إن الأمل في تحصيل السعادة لا يبدأ إلا مع الدين. (١١)

السؤال هنا إذا ما الغاية من خلق العالم أي ما غاية الله تعالى من خلق العالم هل هو الشقاء أم السعادة ؟ وأي سعادة هذه هل هي اللذة أم العمل الأخلاقي المحض دون النظر إلى الفوائد وما علاقة الله بكل هذا؟

يتضح أننا لو تسألنا ماهي غاية الله من خلق العالم فليس لنا إن نجيب بأنها سعادة الكائنات العاقلة في هذه الدنيا ، بل الخير الأسمى ، أي أخلاقية هذه الكائنات ، تلك الأخلاقية التي تحتوي وحدها على المقياس الذي وفقا له يمكنهم إن يأملوا في المشاركة بالسعادة بفضل خالق حكيم، ولهذا فإن الذين جعلوا غاية الخليقة تمجيد الله – على أن لا نفهم من ذلك معنى تشبيهيا بالإنسان أي الرغبة في أن يمدح- قد وجدوا التعبير الأصدق ، لأنه لاشيء يمجد الله غير ماهو الأجدر بالتقدير في العالم، أعني احترام أوامره ومراعاة الواجب المقدس الذي تفرضه علينا شريعته ،إذ تضاف إلى ذلك تتويج هذه الأوامر الجميلة بسعادة تتناسب وإياها. (١٢)

والسؤال هل عاد كانط للأخلاق اللاهوتية التي تتلقى الأوامر من سلطة خارجية مفارقة وأين ذهب التشريع الذاتي الذي جعله كانط جوهر الإرادة الأخلاقية ؟ ذلك التشريع الذي يخرج من صميم مبادئ العقل الخالص لدى الإنسان؟

يجيب كانط بإجابة فلسفية : أن المبدأ المسيحي ليس لاهوتيا وبالتالي فهو ليس تشريعا خارجيا بل هو التشريع الذاتي للعقل المحض العملي بذاته، لأن هذه الأخلاق تجعل من معرفة الله ومن إرادته أحساسا، لا لهذه القوانين بل ، للأمل في بلوغ الخير الأسمى بشرط مراعاة هذه القوانين ، لأنها تضع الدافع الحقيقي الخليق بأن يجعلنا

نراعيها ، لا في النتائج المشتاقة، بل فقط في تصور الواجب بوصفه الأمر الوحيد الذي تجعلنا مراعاته الأمينة جديرين بالحصول على هذه النتائج. (١٣).
فالحرية والخلود والله أمور يؤدي إليها العقل العملي وإن عجز العقل النظري عن البرهنة عليها، فهي مسلمات العقل العملي وهي عقائد، لا عقائد شخصية ذاتية ، بل موضوعية كلية لأن العقل نفسه هو الذي يفرضها، فهي عقائد مشروعة، وأن التسليم بها أقرار بتقدم العقل العملي على العقل النظري ، غير أن هذا التقدم لا يعني العلم بوساطة العقل العملي بما لا يستطيع العقل النظري العلم به،بل يعني فقط أننا نثبت باسم العمل ما يقتضيه العمل ، فنؤمن به إيمانا خلقيا أو عمليا قائما على حاجة العقل العملي وهي من ثمة حاجة كلية،ولا بأس في ذلك بل على العكس إن هذا الإيمان موافق لنا كل الموافقة ، فلو كان لنا بالله وبالخلود علم نظري كامل لكان من المستحيل استحالة أدبية إلا يضغط هذا العلم على إرادتنا ويجبرها، ولكانت خلقيتنا – أي أخلاقنا- آلية فكنا أشبه بالدمى يحركها الخوف والرجاء أو الشهوة، في حين أن الإيمان يدع مجالا لحرية الإرادة وللفضل في الفضيلة.ونتيجة هذه النظرية يحق لنا أن نتصور واجباتنا أوامر صادرة ليس فقط عن العقل بل عن الله أيضا، فننتهي إلى الدين، لا الدين الموضوع قبل الأخلاق والمعين لها،بل على العكس. الدين القائم على الأخلاق القائمة على العقل.نعم أن الأخلاق تنتهي إلى الدين لأن الإنسان وهو حساس عاقل معا لا يستطيع بقوته الذاتية البقاء إلى غير حد على الإرادة الصالحة ومقاومة مطالب الحساسية ، وأن يحدث بأداء الواجب ما تقتضيه هذه الحساسية بحق من سعادة، والأخلاق لا تقوم على الدين ، لأن في طاعة القانون الخلقي أصل الحاجة التي يرضيها الدين،فالدين إذا قائم كله على الفعل الخلقي الباطني. (١٤).
بهذا يرجع كانط الدين إلى الأخلاق ويذيب الدين كعوامل حسية تقوم على فعل الجوارح للعبادات الظاهرية ، بينما الأخلاق فعل عقلي ينبع من العقل المفارق لكل مادة الغني والمتسلح بالإرادة الصالحة المتمظهرة في الواجب.

المبحث الثالث
رؤية أو نظرية كانط الأخلاقية

يبني كانط فلسفته الأخلاقية على أساس إنساني، أي تقوم على محورية الإنسان في الوجود، محورية الله كما كان سائدا في الفكر الديني المسيحي الأوروبي، تتمركز نظرية كانط في الأخلاق على رفض تكوين أخلاقيات تعتمد على الحس والمنفعة بل لابد من رجوعها إلى العقل الخالص من كل مادة وإنشاء فلسفة خلقية تختلف تماما عن تلك التي تعودنا عليها في كتابات الفلاسفة، يبدأ كانط بتحديد المبدأ الذي تقوم عليه الأخلاق أو التي ترجع الأخلاق له فيحدده ويسميه الإرادة الخيرة، هذه الإرادة هي المبدأ الأخلاقي وهي التي يتفق الناس عليها بدون تحفظ وهذه الإرادة خيرة بالذات وهي تكفي كشرط ومبدأ كافي للأخلاق إذ أنها خيرة بذاتها لا بعواقبها.
ولتوضيح طبيعة هذه الإرادة يستعين كنط بفكرة الواجب ، أن الإرادة التي تعمل وفقا للواجب هي إرادة خيرة، أي أن الواجب هو الذي يعمل وفقا للإرادة الخيرة لا العكس. [١٥]. لأن الإرادة الخيرة الكاملة لا تعمل ابتغاء الواجب، لأن في فكرة الواجب فكرة ما ينبغي التغلب عليه من الميول والرغبات. أن الإرادة الخيرة الكاملة تعمل من تلقاء نفسها دون الحاجة إلى الميول الطبيعية.

والسؤال هنا ماهو الواجب ؟
الواجب هو ما يقرر وفقا لقاعدة ، والقاعدة هي المبدأ الذاتي. والواجب هو ضرورة انجاز العمل وفقا للقانون.
السؤال هنا يلح ، ماهو هذا القانون ومن أين يستمد؟
أن الصفة المميزة لكل قانون هو أن يكون كلي ، أي صادق في جميع الأحوال بدون استثناء ، والقانون الأخلاقي هو القانون الذي يقول إن الفاعل الأخلاقي يتصرف أخلاقيا إذ سيطر العقل على كل ميوله. فالقانون هنا عقلي وبالتالي فالتجربة لا تنفع في وضع هذا القانون أو استلاله منها، لاستحالة إنتاج قانون كلي من الواقع العملي للتجربة ،أي من المستحيل أن نعثر في الواقع العملي التجريبي على فعل أخلاقي صادق. من صواب الرأي أن يكون من أشد الأمور ضرورة أعداد فلسفة أخلاقية خالصة، نقية نقاء تاما من كل ما يمكن أن يكون تجريبيا ومن كل ما يتصل بعلم الإنسان. (١٦).
فالتأسيس هنا لفلسفة مستمدة من العقل الخالص من كل مادة هو الهدف الذي يتوخاه كانط في فلسفته، وسبب عدم البحث عن هذه القوانين الأخلاقية في الإنسان أنها يجب أن لا تلمس العالم والوضع الذي يعيش فيه الإنسان، بل لابد إن تأتي من العقل الخالص من كل مادة ،فلابد من البحث عن القوانين الأخلاقية بطريقة قبلية في العقل الخالص وحده، هذا ما عناه بميتافيزيقا الأخلاق، أي البحث عن القوانين الأخلاقية في العقل الخالص ،فطريقة البحث القبلية هي الميتافيزيقا والقوانين المبحوث عنها هي نظرية الأخلاق. فإنتاج نص أخلاقي يعتمد على المعلومات القبلية الموجودة في العقل الخالص لا اعتماداً على نصوص دينية موجودة فعلاً .وعليه فان قيام قانون خلقي معين لابد أن يكون مسبوقا بميتافيزيقا خلقية لا ملحوقا بها بسبب تعرض الكثير من القوانين الأخلاقية إلى الفساد بسبب عدم خروجها عن فلسفة نقية خالصة .
وهذا يعني خلوص الفلسفة الأخلاقية من كل شوب للمادة والتجربة قد يعلق بها.
هنا نجد أن مجرد الاتفاق التام مع القانون بوجه عام دون الاستناد إلى قانون محدد قائم على أفعال معينة، هو مبدأ الإرادة وهو الذي ينبغي أن يكون مبدأ لها حتى لا يكون الواجب وهما باطلا وفكرة خرافية. (١٧) .. فالواجب صنو الإرادة لا ينفك عنها والقانون هنا هو الأساس الفلسفي والموضوعي لكل البناء الفوقي لهذه النظرية ،أي القوانين التي أضعها وأريد منها أن تكون قانونا عاماً ، ومنبع هذه القوانين هو العقل ، ولكن أي عقل ليس ذلك العقل المشترك بين البشر بل العقل الخالص من كل مادة .
لآن العقل الإنساني المشترك قد لا يلتزم بالواجب وقد لا يلتزم بالمسلمات ،فهو قد يكذب لينقذ نفسه في حال يستطيع أن يخلص نفسه بفطنة دون أن يكذب ، ونحن اشترطنا إن الإرادة الخيرة تعلو قيمتها عن كل شيء وفوق كل شيء، أن استخدامنا للعقل الخالص هو كي لا نقع في بلبلة التجربة التي يشوبها الغموض والاضطراب ،ولكي نخلص إلى المراد من القوانين التي نريد أن نضعها كمسلمات أخلاقية نلتزم بها ضمن الواجب والتي تمثل الإرادة الخيرة بأعلى صورها .كل هذا لا يحتاج إلى علم وفلسفة، كل الذي يحتاجه الإنسان هو أن يوجه انتباهه إلى مبدأها كما فعل سقراط . (١٨). ليصير بذلك أمينا وخيرا ، وهذا ليس معناه الابتعاد عن الفلسفة بل

نحن نحتاج إلى الفلسفة لنجعل نظام الأخلاق أتم وضوحا ولكن حاجتنا إليها تأتي في الدرجات القصوى للحاجة. (١٩). أي ليس أبتدا كما قد يتوهم من النص. وسبب عدم الاعتماد على التجربة هو نفس السبب الذي يرفض به كانط الفلسفة الأخلاقية الشعبية القائمة على التجربة وعلى مخزونات العوام من القيم الأخلاقية فهي لا تمثل القانون الأخلاقي المراد هنا. أن النزول إلى مستوى الأخلاق الشعبية القائمة على التلقي والتقليد هو أمر محمود ، ولكن قبل هذا الهبوط لابد من الارتقاء إلى مبادئ العقل الخالص وتأسيس مذهب الأخلاق أولا على الميتافيزيقا. فإذا رسخ بنيانها عمدنا إلى تيسيرها بالفهم الشعبي لهم ، ولكن إذا اعتمدنا على الأخلاق الشعبية من البداية فهذا في منتهى الخلف والاستحالة،أن تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق ليس ترفا عقليا بل هو حاجة ضرورية جدا لبني الإنسان ، فمن غير الممكن لأي مشتغل بالفلسفة أن يترك الفلسفية الشعبية القائمة على التلقي والتقليد والتجربة أن تستأثر بالأخلاق بل لابد من الخوض في تعليم الناس أن المبادئ الأخلاقية موجودة فعلا داخل كل فرد بصورة قبلية (وهذا هو معنى ميتافيزيقا الأخلاق عند كانط كما قدمنا) غاية ما في الأمر أنه يدركها متى نقى عقله من كل معرفة وتقليد وبحث عن تلك المبادئ ليجدها أمامه، وهذا هو نتاج العقل العملي الخالص من كل تجربة وهو أمر ليس بالعسير على الناس سيما إذا حثهم الفلاسفة عليه ونوروا لهم الطريق بالأدلة الخالصة . إن التمييز بين الإرادة الخيرة والمنفعة الذاتية يكون حينما يقع الإنسان في الاختيار بين صيانة حياته مثلا وتأدية الواجب ؟ فالإنسان بطبيعته يميل إلى حفظ حياته وتوفير السعادة لنفسها ولكن تدفعه رغبة في تأدية الواجب ، فالإرادة الخيرة لا تبدو واضحة إلا متى تنازعت مع الرغبة الحسية في البقاء والسعادة وتلك هي مشكلة الأخلاق الشعبية بصورة عامة .أن كل كائن حي يحكمه قانون ، فالطبيعة تفعل وتسير بموجب قانون، وهناك إضافة إلى القانون الطبيعي القانون الذي يحكم الكائنات الحية العاقلة ،موقف الإرادة هنا مختلف ، فتطابق الإرادة مع العقل دائما فلا تشتهي إلا ما تعتبره خير خالصا هي إرادة قدسية إلهية ، والحال أن الإرادة الإنسانية خاضعة لدوافع حسية معارضة للقانون، وبالتالي فان تطبيق القانون هنا يعد أكراها لمنفذه وبالتالي هو أمر وليس واجب ، والمطلوب أن يكون واجبا نابعا من ذات الإرادة الخيرة بدون أكراه وهذا خلف الأمر الذي يصل إليه الإنسان مكرها.

وهنا السؤال المهم هو كيف ننتج هذا القانون وكيف نلتزم به ؟

هنا نقول ونعرف الأمر المطلق على أنه (أعمل فقط حسب الحكم الذي تستطيع أن تريد في نفس الوقت إن يصير قانونا كليا)

وهذا التعريف بعيد عن دوافع الحس والتجربة فهو صوري بحت وهو بالتالي عام بعيد عن التطبيق العملي ، فيتعين هنا أن ننتقل إلى ما هو أخص منه ونعرف الأمر المطلق على أنه:

(اعمل كما لو كنت تريد إن تقيم الحكم الصادر عن فعلك قانونا طبيعيا) ولتوضيح التعريف نمثل له ، هل يجوز أن تنتحر إذا ما ضاقت بك الحياة وسدت أمامك السبل؟ هل يجوز أن تقترض المال والوعد برده مع علمك بعدم إمكانية الوفاء بهذا الوعد؟

هل يجوز تنمية الشخصية على حساب لذات الحياة ومتعها ؟ كل هذا منافٍ للإرادة الخيرة ، كل هذا من جهة أن الإرادة قوة العمل بناء على تصور قانون .
ولكن بناء على الغايات فالاختيار يدخل هنا ويتحول الأمر المطلق إلى أمر شرطي ،فالأمر المطلق ينطلق من غاية ذاتية يضعها العقل وحده فتفرض على كل عاقل موجود .
ونتدرج في توضيح الأمر المطلق وصياغته فنقول(اعمل بحيث تعامل الإنسانية في شخصك وفي أي شخص أخر كغاية لا وسيلة)
وهذه الصيغة لو طبقت على الأمثلة السابقة لوجدنا أن التعامل كان مع الذات الإنسانية فقط بينما هنا ينسحب على الإنسانية ككل فما كان غاية تحول إلى وسيلة للضرر. وبالجمع بين الصيغتين السابقتين تنتج صيغة جديدة للأمر المطلق هي :
(أعمل كما لو كنت مشرع القانون) وهنا الذات هي مشرعة للقانون ملتزمة به أي خاضعة له باعتبارها موجود عاقل وحساس معا . (٣٠).
والمشكلة هنا في كيفية فرض القانون على الآخرين، أن كانط يريد من كل إنسان أن يكون مشرعا للقانون الأخلاقي انطلاقا من ذاته بالرجوع إلى المبادئ الأولى في العقل الخالص، والظاهر أنه أمر متعسر، فلكي يستطيع الإنسان إن يصل إلى مستوى التشريع أن ينطلق من تطبيق المبدأ الأخلاقي ليس لغاية ما وإنما لمجرد تطبيقه، وهو أمر عسير جدا، سيما إذا لا حظنا أن الإنسان بطبعه ميال نحو الدعة وأثرة نفسه على الغير، فليس من الممكن أن نصنع مجتمعا خاليا من هذه الميول حتى لو حاولنا جاهدين أن نمنهج وندرس هذا المجتمع السبل الكفيلة بجعله ينطلق من الإرادة الخيرة بحد ذاتها ، إن أقصى ما نستطيع أن نقوم به هو جعل المجتمع لا يطلب فعل الخير لأجل الكسب الآني بل لأجل كسب أخر بعيد عن الميول المادية ولكن نزع هذه الصفة منه أي هذه الغرائز لكي يكون مشرعا ومنفذا للواجب!! بوصف كانط وسوف ينفذ الأمر ولكنه مرغما لا من ذاته، وشتان بين ما يطلبه الفيلسوف وبين المجتمع الواقعي، وعلى أي حال فلا نستطيع أن ننزع من المجتمع والذات الإنسانية الميول الغريزية ولكن بالإمكان ترويضها ، أما قتلها فهو أمر مستحيل حتى مع فرض المحال ،وهنا تتجلى المثالية في أقصى درجاتها ورغم كونها فلسفة راقية وذات أبعاد إنسانية عميقة إلا أنها تفتقر للواقعية في أحيان كثيرة ولا سيما ما ينظر له كانط في رسالته هذه من تأسيس لمنظومة أخلاقية متكاملة تقوم على أساس الدافع الذاتي للخير لا شيء أخر . كانط ينتبه إلى هذه الملاحظة ويحاول أن يحلها ، يجب أن نعترف بصراحة بأننا نلاحظ هنا حلقة مفرغة يبدو كأنه لا سبيل للخروج منها ، فنحن نفترض أننا أحرار في نظام العلل الفاعلية لكي نتصور أنفسنا في نظام الغايات خاضعين لقوانين أخلاقية ،ثم نعود فنتصور بعد ذلك أننا خاضعون لهذه القوانين لأننا نسبنا إلى أنفسنا حرية الإرادة ، أن الحرية والتشريع الذي تضعه الإرادة لنفسها كليهما في الواقع ضرب من الاستقلال الذاتي ، وهما تبعا لذلك تصوران يحل أحدهما محل الأخر ، ولكن هذا على التحقيق هو السبب أننا لا نستطيع أن نستعين بأحدهما لتفسير الأخر وبيان الأساس الذي يبنى عليه، بل إن أقصى ما نستطيع القيام به من وجهة النظر المنطقية هو أن نرد تصورات مختلفة في ظاهرها لموضوع

واحد بالذات إلى تصور واحد كما نرد شذرات مختلفة ذات مضمون واحد إلى أبسط التعابير الممكنة. (٢١) .إلى هنا نتوقف في عرضنا السريع هذا لمفردات هذا البحث المتواضع لنستخلص المبدأ السامي الذي حاول وضعه كانط ونجح فيه إلى حد بعيد فنرى أن الكثير من الأخلاقيات لدى الأوروبيين هي من صناعة هذه النظرية الضخمة بغض النظر عن النقود التي وجهت لها تبقى نظرية كانط في الأخلاق هي القمة في الفلسفة المثالية الحديثة ويبقى كانط نموذج للفيلسوف العقلاني المثالي الذي يحتذى به في عرصات الفكر الفلسفي والأخلاقي، وحريا بنا نحن طلاب الفلسفة أن نلتمس في طريق دراستنا مثل هكذا نماذج حية ورائدة لتكون قدوة لنا في البحث العلمي الرصين ومفتاحا لتنوير طريقنا الحالك والمحفوف بمخاطر التكفير والإقصاء.
والله من وراء القصد
والحمد لله رب العالم

الخاتمة

في ختام بحثنا هذا نصل إلى نتائج أو توصلنا إلى نتائج مهمة للغاية نستطيع أن نضمنها في نقاط عديدة.

١- تأسيس كانط لميتافيزيقا جديدة قوامها المبادئ القبلية في العقل الخالص من كل مادة تؤسس من خلالها قوانين أخلاقية عامة يلتزم بها من قبل الناس.
٢- نقد الأخلاق الشعبية والأخلاق العملية القائمة على الرغبة والشهوة كما نقد العقل العملي الخالص، وأسس لمفهوم الأخلاق العلمية العقلية.
٣- تأسيس منظومة أخلاقية يتبعها الدين ويكون عونا لها لا قاعدة ترجع إليه ، وهي خلاصة نظريته في تبعية الدين للأخلاق.
٤- تأسيس مفاهيم جديدة عن المقدس وكيفية التعامل معه وعن الله وكيفية طاعته والتزام تعليماته.
٥- تأسيس القوانين الأخلاقية ووضع القواعد العامة لتنفيذها في المجتمع والتربية والتثقيف حول هذه القوانين.

نستطيع أن نجزم بأن أوروبا الآن مدينة لكانط كثيرا سيما مع التقدم الذي ساوق الالتزام الأخلاقي لديهم. وهنا أثارة مهمة . هل بالفعل أن الالتزام بالأخلاق وتطبيقها في المجتمع هو مفتاح للتقدم والازدهار بغض النظر عن ماهية هذه القوانين وعن الدين أو المبدأ الذي نبعت منه وعن دين أو معتقد منفذها؟

الباحث

المصادر والمراجع:

١- أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق.منشورات الجمل.بيروت
٢- أمانوئيل كانط – نقد العقل العملي – منشورات دار العلم للملايين.بيروت
٣- الأستاذ يوسف كرم - تاريخ الفلسفة الأوروبية الحديثة- دار المعارف – مصر.
٤- الدكتور عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – دار ذوي القربى –إيران.
٥- فيكتور دلبوس – فلسفة كانط العملية- ص ٥٤١- ٥٤٢- القاهرة.
٦- الشيخ محمد رضا المظفر – أصول الفقه – دار المعارف – بيروت.
٧- الشيخ محمد كاظم الخراساني – كفاية الأصول - منشورات جماعة المدرسين – قم – إيران.
٨- فرانسوا غريغوار – المذاهب الأخلاقية الكبرى – ترجمة قتيبة ألمعروفي – بيروت.
٩- الدكتور توفيق الطويل – أسس الفلسفة – دار المعارف – مصر.

الهوامش

١. يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة- ص٢٣١. توفيق الطويل – أسس الفلسفة – ص١٣٢.
٢. فرانسوا غريغوار – المذاهب الأخلاقية الكبرى – ترجمة قتيبة ألمعروفي – بيروت – ص٥.
٣. د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ج٢- ص ٢٨١-٢٨٣.
٤. نفس المصدر السابق بتصرف.
٥. أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – القسم الأول – ص٣٧. ترجمة--- د- عبد الغفار مكاوي.
٦. المصدر السابق نفسه .
٧. فيكتور دلبوس – فلسفة كانط العملية- ص ٥٤١- ٥٤٢- ط ١٩٧٠م القاهرة .
٨. أمانوئيل كانط - تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ترجمة عبد الغفار مكاوي – ص٢٣١.
٩. أمانوئيل كانط – نقد العقل العملي – ص ٢٢١.
١٠. ينظر للمزيد – الشيخ محمد رضا المظفر – أصول الفقه –ج٢- بحث المستقلات العقلية.
١١. د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ج٢-ص٢٨٦. نقلا عن نقد العقل العملي لكانط – ص٢٣٣
١٢. نفس المصدر السابق.
١٣. أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ننوه إلى أن هذه الإجابة وردت في المبحث الأول أيضا وللضرورة كررت هنا.
١٤. الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة – ص ٢٤٠-٢٤١- أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق.
١٥. د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ص٢٨٢.
١٦. أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق- ص٢٥.
١٧. أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ص٥٥
١٨. يعتقد سقراط أن كل إنسان يحمل الحقائق الأخلاقية في نفسه فهو ليس بحاجة إلى أن يتلقاها من الخارج بل إذا تأمل في نفسه اكتشفها فيها وهو مفاد مقولته أعرف نفسك.هذه المقولة في الحقيقة وجدت مكتوبة على باب معبد دلفي وأغلب الظن أن سقراط أقتبسها من هناك ولعلها من وضع الحكماء السبعة أو من وضع سولون الحكيم – لقمان الحكيم- الباحث
١٩. المصدر السابق – ص٦١.
٢٠. الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الأوربية الحديثة- ص ٢٣٤-٢٣٦.
٢١. أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق -ص ١٥٤.

الفهارس:

١- المقدمة ص ٢
٢- المبحث الأول – علاقة النص بالعقل ص ٣- ٦
٣- المبحث الثاني – علاقة الدين بالأخلاق ص ٧- ٨
٤- المبحث الثالث – رؤية أو نظرية كانط الأخلاقية ص ٩- ١٢
٥- الخاتمة ص١٣
٦- المصادر والمراجع ص١٤

(١) يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة- ص٢٣١. توفيق الطويل – أسس الفلسفة – ص١٣٢.
(٢) فرانسوا غريغوار – المذاهب الأخلاقية الكبرى – ترجمة قتيبة ألمعروفي – بيروت – ص٥.
(٣) د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ج٢- ص ٢٨١-٢٨٣.
(٤) نفس المصدر السابق بتصرف.
(٥) أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – القسم الأول – ص٣٧. ترجمة--- د- عبد الغفار مكاوي.
(٦) المصدر السابق نفسه .
(٧) فيكتور دلبوس – فلسفة كانط العملية- ص ٥٤١- ٥٤٢- ط ١٩٧٠م القاهرة .
(٨) أمانوئيل كانط - تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ترجمة عبد الغفار مكاوي – ص٢٣١.
(٩) أمانوئيل كانط – نقد العقل العملي – ص ٢٢١.
(١٠) ينظر للمزيد – الشيخ محمد رضا المظفر – أصول الفقه –ج٢- بحث المستقلات العقلية.
(١١) د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ج٢-ص٢٨٦. نقلا عن نقد العقل العملي لكانط – ص٢٣٣
(١٢) نفس المصدر السابق.
(١٣) أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ننوه إلى أن هذه الإجابة وردت في المبحث الأول أيضا وللضرورة كررت هنا.
(١٤) الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الحديثة – ص ٢٤٠-٢٤١- أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق.
(١٥) د- عبد الرحمن بدوي – الموسوعة الفلسفية – ص٢٨٢.
(١٦) أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق- ص٢٥.
(١٧) أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق – ص٥٥
(١٨) يعتقد سقراط أن كل إنسان يحمل الحقائق الأخلاقية في نفسه فهو ليس بحاجة إلى أن يتلقاها من الخارج بل إذا تأمل في نفسه اكتشفها فيها وهو مفاد مقولته أعرف نفسك.هذه المقولة في الحقيقة وجدت مكتوبة على باب معبد دلفي وأغلب الظن أن سقراط أقتبسها من هناك ولعلها من وضع الحكماء السبعة أو من وضع سولون الحكيم – لقمان الحكيم- الباحث
(١٩) المصدر السابق – ص٦١.
(٢٠) الأستاذ يوسف كرم – تاريخ الفلسفة الأوربية الحديثة- ص ٢٣٤-٢٣٦.
(٢١) أمانوئيل كانط – تأسيس ميتافيزيقا الأخلاق -ص ١٥٤.